

(٢)

في الامتداد الأعظم

للملك عبدالعزيز

obeikandi.com

في الامتداد الأعظم للملك عبدالعزيز

لنبدأ من البداية التي لا يمكن تجاوزها، فـ (الفرع) مسبوق - بالضرورة - بـ (الأصل)؛ إذ لا وجود للفرع دون وجود الأصل.

والأصل هو الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود.. فصاحبنا الذي نكتب عنه هو الابن الخامس والعشرون للملك عبدالعزيز وفق الترتيب العمري.. فسلطان - من ثم - امتداد حي للملك عبدالعزيز.

وللملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود (امتدادات وآثار) هائلة في الحياة، بعد موته رحمه الله؛ امتدادات وآثار إصلاحية وبنائية وحضارية، يمكن إجمالها في (الأثر الضخم العملاق) المائل أمام الأعين في الواقع، وهو المملكة العربية السعودية التي هي في حقيقتها امتداد مطور للنهضة التي بناها الملك عبدالعزيز.

نقرأ في التاريخ مثلاً أن من مظاهر الدولة الأموية وآثارها التوسع في (الدواوين) أو التنظيم الإداري.. وصك عملة جديدة مستقلة عن النمط الروماني استقلالاً ميز الدولة الإسلامية عن غيرها في هذا المجال ولا سيما في عهد عبد الملك بن مروان.

يضم إلى ذلك إنجاز أو ابتداء الترجمة بمبادرة من خالد ابن يزيد بن معاوية.

ونقرأ في التاريخ أن من امتدادات الدولة العباسية وآثارها تكوّن الأسواق الكبيرة، والمدن الهائلة، والجوامع، والحمامات والمستشفيات كما أصبحت بغداد مركزاً لطلاب العلم يؤمنونه وينهلون منه ليس العلوم الشرعية فحسب، بل - كذلك - العلوم التجريبية: كالكيمياء.. والطب.. والهندسة ومعظم العلوم التي تقوم عليها الصناعات المختلفة. وقد قام المأمون - على سبيل المثال - بعقد معاهدات علمية وثقافية مع ملوك الروم حصل من خلالها على كثير من المخطوطات العلمية المهمة.

كان ذلك من امتدادات الدولتين الأموية والعباسية ومن آثارهما. وهي امتدادات وآثار صاحبت مسيرة حضارة المسلمين قروناً عديدة.

ومما لا شك فيه أن هذا الكيان الضخم القائم الماثل ذو التأثير القوي الفاعل على المستويات: الوطنية، والأقليمية، والدولية.. مما لا شك فيه: أن هذا الكيان (المملكة العربية السعودية): امتداد لكفاح الملك عبدالعزيز وأثر من آثاره.

فالمك عبد العزيز:

هو الذي وضع نواة الدستور الذي حكم المملكة ولا يزال يحكمها.

هو الذي أسس للنهضة الزراعية.

هو الذي أسس للنهضة الصناعية.

هو الذي أسس للنهضة التعليمية والثقافية والإعلامية.

هو الذي أسس للنهضة الدبلوماسية والعلاقات الخارجية.

هو الذي أسس للنهضة الأمنية والعسكرية.

هو الذي أسس نهضة إعمار الحرمين الشريفين.

إن الاستقراء الموضوعي الأمين لنهضة المملكة يدل على أنه ما من مجال من مجالات التقدم ولا حقل من حقول النهضة والترقي في البلاد إلا كان الملك عبد العزيز غارس شجرته أو باذر بذرته بعون الله وتوفيقه.

وقد تمكن من القيام بذلك؛ لأن الله وهبه (مواهب متنوعة) وقدرات متعددة: أعانته على تحقيق طموحه العالي الكبير وهو:

القفز بالبلاد - باسم الله - إلى أعلى درجة مستطاعة من الرقي والكمال الميسور.

ولندع جمهرة من الصفوة الإسلامية وغير الإسلامية تصف تلك الخصائص والمواهب المتنوعة لدى الملك عبد العزيز.

١- «رأيت فيه مثلاً للعروبة في حالتها الفطرية تتجلي فيه المعاني السامية البارزة في حياة العرب في جاهليتهم وإسلامهم، وأول هذه المعاني العزة والثقة بالنفس، وما ينطوي على ذلك من اعتقاد في سمو القوم الذين ينتسب إليهم؛ فكل شيء في نظره هو دون المستوى الذي ترسمه العروبة في خاطره.. وهو يعتقد أن العزة لله.. ثم له.. فمعنى مركب النقص لا يخطر له على بال.. وحين التقيت به لأول مرة سنة ١٩٢٨ أدركت أن معنى الديمقراطية^(١) أصيل في نفس العربي، فليست المساواة أمراً مصطنعاً يحافظ عليه بالآداب العامة أو بالقانون، ولكنه معنى طبيعي ناشئ من احترام الإنسان لإنسانيته واعتبار أن الناس من آدم، وآدم من تراب.. إنه رجل تمر الحقب ولا يرى الناس مثله».. عبد الرحمن عزام باشا^(٢).

(١) الديمقراطية مفاهيم متعددة، ولعل عبد الرحمن عزام يقصد قيم الحرية والمساواة والشورى ٠٠ وهذه كلها من صميم منهج الإسلام الذي حمله الملك عبد العزيز.

(٢) الملك الراشد: عبد المنعم الغلامي ص ٤٠٣-٤٠٤.

٢- «إن الرجل - في الملك عبدالعزيز - أكبر من السلطان، فمهما قيل في ابن سعود فهو رجل قبل كل شيء: رجل كبير القلب والنفس والوجدان، عربي تجسمت فيه فضائل العرب، خلو من الادعاء والتصلف، خلو من التظاهر الكاذب.. وقد ساد قومه، ولا شك بالمكارم، لا بالألقاب».. أمين الريحاني^(١).

٣- «كنت أقرأ كثيراً من الأحاديث والأجوبة التي يفتي بها ابن سعود إلى بعض الصحفيين سواء أكانوا عرباً أم أجنب فلم أجد هذا الملك تهوّر مرة واحدة في حديث أو تكلم بكلام يؤخذ عليه، بل تجده إذا تكلم في معنى سياسي صرّح به بما يريد دون موارد، لكنه لا يجعل نفسه في قفص. وأما الأمور التي يجزم بها جزمًا باتاً فهي التي يرى أنه لا محيد عنها والتي يعدها قاعدة سياسته الداخلية والخارجية، لا يبالي أغضب من أجلها من غضب أم رضي من رضي».. أمير البيان: شكيب رسلان^(٢).

٤- «صارت نجد في أيامه إمارة كبيرة، أحسن إدارتها، وحفظ الأمن فيها، ونظم الدعوة لنشر الدين والحضارة في قبائلها المجاورة لها، كما نظم فيها القوة المقاتلة تنظيمًا

(١) المرجع السابق ص ٣٩٧.

(٢) المرجع السابق ص ٣٩٦.

كافياً لحفظها والأمن من الاعتداء.. ثم صار ملكه ممتداً من البحر الأحمر إلى الخليج، ولم يزد هذا كله إلا خشية لله تعالى وتواضعاً للناس».. الشيخ محمد رشيد رضا^(١).

٥- «عبد العزيز ابن السعود أيده الله وحفظه ورعاه هو الملك الصالح المصلح الذي أسس في قلب جزيرة العرب وعلى أطرافها أعظم دولة عربية منذ عهد الخلفاء الراشدين، ووطد أركان هذه الدولة الفتية على أسس متينة من العدل الإسلامي، والحكم القرآني، والأريحية العربية.. ثم عمد إلى جذور الفساد والبدع والمنكرات التي تأصلت في البلاد طيلة عهود الظلمات، فاجتثها بيد قوية وبنفس مؤمنة واثقة بالله، فوحد البلاد بعد شتات، ونظم الحكم بعد فوضى، وأمن السابلة بعد خوف وبغي وعدوان، ومصرّ الأمصار، وأقرّ الأعراب حول القرى والمزارع بعد أجيال مضت في ترحل لا نهاية له، وجعل العربي من الخليج إلى البحر ومن بادية الشام إلى ربوع حضرموت يشعر بالوحدة العربية، ويحس بانتسابه إلى دولة قوية تحرسه وترعاه، ويعلم أن وراءه حكومة قوية ذات حول وطول، تسهر على مصالحه، وتدافع عن حقوقه..

(١) المرجع السابق ص ٣٩٩.

أمَّا التمثيل الخارجي فقد أولاه جلالته عناية خاصة، واختار جماعة صالحة من فتيان العروبة القُحَّة يقومون في مختلف البلاد الشرقية والغربية بتمثيل الدولة العربية تمثيلاً مشرفاً يرفع الرأس ويحفظ الكرامة.. ولقد أخذت الحركة العلمية تنتشر بعد ركود طويل، وصارت المدارس تفتح أبوابها في مختلف المدن والقرى، فمنها الابتدائية ومنها الثانوية والعليا، وقوامها دين الله الصحيح، وقرآنه المطهر، ولغته الفصحى، وعلوم الحياة التي كان القرآن أول من كشف الستار عنها في العالم، وفجر ينبوعها العذب للباحثين والمكتشفين، ثم جعل للبلاد العربية السعودية صوتاً واضحاً كما لغيرها من بلاد الله أصوات، فاقتحم ميدان الأثير، وأنشأ مذياع مكة المكرمة الذي يرفع الصوت بالهدى ودين الحق كل صباح ومساءً.. شيخ علماء الجزائر محمد البشير الإبراهيمي^(١).

٦- «ابن سعود من أولئك الزعماء الذين يراهم المتفرسون المتوسمون، فلا يحارون في أسباب زعامتهم، ولا يجدون أنفسهم مضطرين لأن يسألوا: لماذا كان هؤلاء زعماء؟ لأن الإيمان باستحقاق هؤلاء لمنزلة الزعامة في أوقامهم أسهل كثيراً من الشك في ذلك الاستحقاق».. عباس محمود العقاد^(٢).

(١) المرجع السابق ص ٤٠٨-٤٠٩.

(٢) خير الدين الزركلي: شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز ج ١-٢ ص ٧٢٧.

٧- «حسبي أن أقول إني معجب به، فقد خيل إليّ وأنا أحادثه أي أمام بسمارك منشئ الوحدة الألمانية. وإذا عرفتم أن ابن سعود نجح في تأليف (إمبراطورية) تفوق مساحتها مجموع مساحات ألمانيا وفرنسا وإيطاليا معاً، بعد أن كان زعيماً بسيطاً لا يقود إلا بضعة عشر رجلاً في بادئ الأمر: لم يداخلكم الشك في أن هذا الرجل الذي فعل هذا، يحق له أن يُسمى (نابغة).. وفي ابن سعود ميزة أخرى هي أنه كريم وصادق؛ لقد حدثته مرتين في شؤون مختلفة، كان بعضها دقيقاً جداً، فلم ألحظ قط أنه يلبس الباطل ثوب الحق. نعم؛ كان سياسياً أحياناً في أجوبته، ولكنه لم يتلفظ بكلمة واحدة غير صادقة».. الكاتب النمساوي فون وايزل^(١).

٨- «بعد أن نجح ابن سعود كجندي ومحارب كرّس كل جهوده لبناء بلاده على أسس عصرية حديثة، لقد أراد القفز بها من حياة القبيلة إلى حياة العصر الحديث، ويظهر إن ابن سعود قد نجح إلى حد كبير في هذا المضمار، وأثبت بذلك أنه رجل سياسي قدير بعيد النظر.. كان أول عمل ناجح قام به هو إقرار الأمن داخل البلاد، فأصبحت في وقت قصير قوافل

(١) المرجع السابق ص ٣٠٣-٣٠٤.

الحجاج تسير بطمأنينة كبيرة، وكان هذا انتصاراً عظيماً سرّ له الناس كثيراً؛ لأن الحجاج كانوا في السابق معرضين للنهب والسلب في أثناء أسفارهم.. أمّا ثاني نجاح أحرزه فهو توطين البدو الرحل، وقد بدأ هذا العمل قبل دخول الحجاز، وبذلك أرسى دولة حديثة. ولم يكن هذا العمل سهلاً قط مع بدو عاشوا حياتهم يحبون التنقل. ومع ذلك فقد نجح ابن سعود في ذلك. ويضاف إلى ذلك أنه أصلح الجهاز الإداري، وأدخل تقنيات العصر ووسائله».. جواهر لال نهرو^(١).

هذه المناقب والمواهب والقدرات والعبقریات المتنوعة مكّنت الملك عبدالعزيز بعون الله من صناعة دوله عصريه كبرى على أساس الإسلام.

وهي دولة ملء السمع والبصر حتى الآن وفي المستقبل بإذن الله.

■ ذلك كله من امتدادات الملك عبدالعزيز ومن آثاره المستمرة في الحياة.

الامتداد الأعظم:

ودون تقليل - أي تقليل - من عظمة هذه الإنجازات وامتداداتها، فإن أعظم امتداد وأثر للملك عبدالعزيز هو (أبناؤه)، لماذا؟

(١) جواهر لال نهرو: لمحات من تاريخ العالم ص ٢٢٦-٢٢٧.

أولاً: من ناحية السنن الكونية، فإن الأبناء هم (الامتداد الطبيعي) للأباء، وبهذا استمرت الحياة الإنسانية، منذ بني آدم الأوائل وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

أ - ولحكمة ما جاء القَسَم الإلهي: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدًا﴾ (١).

ب - ومن أجل الامتداد في الحياة، نادى نبي الله زكريا عليه السلام ربه: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (٨٩) ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾ (٩٠) (٢).

إن كنوز الدنيا ومباهجها ومقدراتها كلها لا تغني ولا تتوب عن الامتداد في الحياة بالذرية.

ثانياً: أن الرجال الكبار يرغبون في أن تكون ذرياتهم وريثة لهم في معالي الأمور وعظائم المهام والرسالات: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١٣٤) (٣).

فالله استجاب لرغبة إبراهيم - عليه السلام - في أن ترث ذريته الصالحة: الأمر العظيم.. والقرآن لم ينف أن تكون ذرية إبراهيم خلفاء له في الإمامة، وإنما اشترط العدل ونفي الظلم في تولي الإمامة.

(٢) البقرة: ١٣٤.

(١) البلد: ٣.

(٢) الأنبياء: ٨٩-٩٠.

ثالثاً: أن الإنجازات والنهضة التي حققها الملك عبدالعزيز كانت ستضيع (لا قدر الله) لولا أن رزقه الله بأبناء تولوا الأمر من بعده وهم الملوك: سعود وفيصل وخالد وفهد - رحمهم الله - وعبدالله حفظه الله. فقد حمل هؤلاء المنهج والرسالة والأمانة، ومعهم - وحولهم - رجال مخلصون عاملون: أوفياء لدينهم، أوفياء لبلدهم . والله تعالى إذا أراد شيئاً هياً له الأسباب.

■ وسلمان بن عبدالعزيز هو امتداد لأبيه العظيم، وأثر من آثاره الحية المفكرة العاملة.

وقد ورث عن أبيه حظاً موفوراً من الخصائص والمواهب والصفات. من تلك الخصائص التي ورثها مثلاً: وضوح المنهج والثبات عليه والإعلان عنه.

يقول الملك الوالد: «إن المدنية الصحيحة هي التقدم والرقي، والتقدم لا يكون إلا بالعلم والعمل. إن حالة المسلمين اليوم لا تسر، وإن الحالة التي هم عليها لا يقرها الإسلام.. ويقول كثير من المسلمين: يجب أن نتقدم في مضمار المدنية والحضارة، وإن تأخرنا ناشئ عن عدم سيرنا في هذا الطريق. وهذا ادعاء باطل؛ فالإسلام أمرنا بأخذ ما يفيدنا ويقوينا على شرط ألا يفسد علينا ديننا وشيئنا، ويقولون: الحرية، ويدعي بعضهم أنها من أوضاع الأوروبيين، والحقيقة أن القرآن الكريم قد جاء بالحرية التامة الكافلة لحقوق الناس جميعاً،

وجاء بالإخاء والمساواة التي لم تحلم بها كل أمة من الأمم،
فآخى بين الصغير والكبير، والقوي والضعيف، والغني والفقير،
وساوى بينهم»^(١).

■ ويقول الابن سلمان - بعد مرور أكثر من نصف قرن على
وفاة المؤسس: «إن كتاب الله يشتمل على كل القيم التي تكفل
جميع متطلبات الناس والتي تسعى البشرية لبلوغها من سعادة
وتراحم وحقوق إنسان وشورى ورفع مستوى المعيشة، فالقرآن
نبع حياة. ومن يزعم أن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه
وسلم عائق أمام التطور والتقدم في عصرنا الحالي فهو لم
يقرأ القرآن، أو لم يفهمه، وإذا كان هناك تقصير فهو منا
كمسلمين وكبشر».

إن المفاهيم والعبارات في النصين تكاد تكون متطابقة على
الرغم مما يفصل بينهما من عقود زمنية تجاوزت الخمسة.

بم يفسر ذلك؟

يفسر بخاصية مشتركة بين الملك الأب والأمير الابن، وهي
خاصية وضوح المنهج والثبات عليه والإعلان عنه.

(١) الملك الراشد: ص ٣٥٧-٣٦١.